بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بيده تتم الصالحات أحمده سبحانه وأستهديه وأستعينه وأصلي وأسلم على صفوته من خلقه صلوات الله وسلامه عليه وأضرع إليه سبحانه أن يرزقني محبته ومحبة نبيه ﷺ وأن يجعل هميّ الصدق وبغيتي الحق وأن يولي وجهي جهة ابتغاء مرضاته إنه سبحانه رحيم ودود قريب مجيب وبعد .

فالمسكوت عنه باب قديم وجليل ومسكوت عنه أيضًا وقد كان أبو الفتح ابن جنيٍّ يعبّر عنه بالمسهوّ عنه وكانت عبارة المسهو عنه أشبه بزمن أبي الفتح الذي كان في القرن الرابع الهجري ولم تكن مسائل العلم الذي أرادها بهذا الوصف قد طال عليها الزمن فناسبها القول بالسهو ، ولما طال الزمن الذي نحن فيه آثرنا كلمة المسكوت عنه .

وليس هذا الكتاب استقصاء للمسكوت عنه في التراث البلاغي وإنما هو قليل من كثير لأن المسكوت عنه كثير جدًّا ولو قلت أكثر العلم مسكوت عنه لم تكن مخطئًا ، لأن المُبْهم المحتاج إلى إيضاح مسكوت عنه . والمجمل



obeikandl.com

المحتاج إلى تفصيل مسكوت عنه . وأكثر كلام العلماء الظاهر تحته خبيئ ومسكوت عنه . وكل فكرة حية في باطنها فكرة مسكوت عن الذي في باطنها . وكلام العلماء منه ما هو بيان للعلم ومنه ما هو منبهة لعلم ، وهو كثير مسكوت عنه . واستخراج علم من العلم مسكوت عنه واستنباط علم من علم مسكوت عنه ، والقياس في العلم مسكوت عنه ، وتطور أساليب العلماء مسكوت عنه ، ومناهج العلماء مسكوت عنه والفرق الدقيق العلمي المحدد بين شاعر وشاعر مسكوت عنه ، وتحديد سَبْك كل شاعر ورصفه مسكوتٌ عنه والذي اختلف به البيان بين الجاهلية والعصر العباسي مسكوت عنه والذي تجدّد في الشعر لما ارتحل إلى الأندلس مسكوت عنه ، والفرق بين القراءة التي تعلِّمُ العلم والقراءة التي تبحث عن العلم وإنتاجه وكيف بُنيت المعرفة وكيف وُضِعَتْ اللَّبنة على اللبنة مسكوت عنه .

وأنا لا أكتب للسادة العلماء وإنما أكتب للجيل السالك الطريق ليكونوا سادة علماء وهم الذين أوصانا بهم شيوخنا الأوائل ، كابن هشام المصري الذي كتب للمبتدئين كتاب قطر الندى فلما شدا المبتدئون قليلاً وجدوا بين أيديهم كتاب شذور الذهب ، وهو كتاب قطر الندى زيد عليه ما يتناسب مع نموهم القليل . يعني زاد على قطر الندى مقدار ما زادوا ، فلما طرَّ شاربهم وجدوا بين أيديهم كتاب أوضح المسالك . فلما صاروا من ذوي اللِّحَى وجدوا بين أيديهم كتاب المغنى . وكأن علماءنا كانت عيونهم على هؤلاء الذين يَنْمُون على الأرض من أجيال متتابعة . يُعدُّونهم بالعلم لحمايتها وحراستها وإعمارها . معتقدين بأن العلم هو القوة التي تحمي والتي تعمِّر والتي تقوي بها البلاد والعباد . وكأنهم كانوا يحرصون أن لا يعيش على

الأرض جيل مهمل . ومدارس خَرِبة . لأن الجاهل لا يحمي ولا يُعمِّر . وخراب المدارس لا معنى له ألبتّة إلا معنى واحد وهو خراب البلاد ، والذي يترك الجيل هَمَلاً مُهملاً والمدارس خربة لو أقسم كل قسم أنه يحب البلاد التي هي الوطن لا يصدقه إلا كذاب مثله ولا يُدافع عنه إلا كذاب مثله ، العلم هو الحصن وهو الحمى ، وهو العين التي ترى المستقبل . وهو القدم التي تحمل الجيل إلى هذا المستقبل الأفضل ، ورحم الله شيخنا ابن هشام الأنصاري المصري ، وكل شيوخنا كانوا على درب ابن هشام الأنصاري المصري .

قد كنت كتبت بحثًا عن المسكوت عنه في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد ولم أنشره ، وكنت قد استخرجت الكثير من كتابي عبد القاهر مما أغفله المتأخرون ونشرته في كتاب المدخل إلى كتابي عبد القاهر .[1]

ثم شاء القدر الذي أحمد الله عليه أن أقرأ على طلاب العلم في رواق المغاربة في الجامع الأزهر كتابي عبد القاهر فقرأت معهم كتاب أسرار البلاغة وابتدأت كتاب دلائل الإعجاز ، وبقيت في شرح أسرار البلاغة أكثر من سنتين لأن قراءة الكتب في المساجد تختلف اختلافًا شديدًا عن قراءتها في الكليات لأنك تقف مع نصوص الكتاب لشرح الظاهر والخفي وتجتهد في أن تتعرف على الفكرة وكيف اهتدى إليها المؤلف . وهل هي بنت فكرة سبقت أو بنت شعر وقع عليه المؤلف . وفي هذا الشعر لمحة بيانية خفية تاهت في القراءة العجلة . ولما وقف المؤلف وتغلغل كما كانوا يقولون

(١) نشر مكتبة وهبة .

اهتدى إليها وكثير جدًّا من هذا الباب تجده في الكتب التي أسّست المعرفة وهي غير الكتب التي لخّصت المعرفة أو التي شرحت الملخصات ثم إن طلابك مختلفون جدًّا لأنهم جاءوا يطلبون العلم لا يفكرون في امتحان ولا نتائج . ونجد بين يديك الطالب بجوار الذي هو في سن أبيه ، ونجد ذا اللحية البيضاء الذي هو في سن يقارب سنك والكل يحرص على أن يتعلَّم ، وقد أحسست في هذه الدروس في هذا الجامع العريق أنها هي التي خرّجت العلماء . وكانت من أهم العوامل التي ساعدت على نشر العلم في ربوع البلاد ، وإذا كان هناك علم فليس هناك تخلُّف وليس هناك استبداد . وليس هناك إرهاب . لأن هذه العائلة المدمرة للناس التي هي الاستبداد والقمع والتخلف والجهل والإرهاب كلها أخوات من أب وأم ، وكلها يدعو بعضها بعضًا . فلا إرهاب في أُمّة أشرقت بنور العلم إلا أن يكون زحف عليها من الطغيان والقمع والجهل والفقر والتخلف ، وتمنيت أن لو عشت هذه التجربة من أول حياتي ، وأسفْتُ على السنين التي مرت بهذا الجامع العريق وأروقته خالية من مجالس العلم ، والمهم أنني في هذا المجالس كنت أكتشف الكثير المسكوت عنه في كتاب أسرار البلاغة مع كثرة ما اقتبسته منه في كل ما كتبت وعرض عليّ طلاب العلم أن يفرغوا الدروس ثم أراجعها ليخرجوها في كتاب يحمل اسم رواق المغاربة وأسرار البلاغة وأنا حريص على رواق المغاربة لأنها بيان لما كان يكون في هذا الأزهر في تاريخه العريق وأن المغاربة الذين يذهبون الآن إلى دور أوربا لهم رواق فيه صار خاليًا منهم .

وكانت هذه الأروقة بشيوخها وطلابها من أهم العوامل التي حَافَظَتْ على وحدة الثقافة العربية الإسلامية . فلما خلت من الدروس والطلاب واتجهنا في العلم والثقافة إلى غير قبلتنا حدث هذا التصدع والتشقُّق في هذه الوحدة الثقافية التي كانت من أهم عوامل إمساك شعوبنا بعضها ببعض . وقد ذكر الكثيرُ منا أن الصدع الثقافي بين مشرقنا ومغربنا قد زاد وقاربنا أن نكون بين ثقافتين واحدة في المغرب وواحدة في المشرق .

وقد تكون المسألة مما كثر الحديث فيها وشاع وتناقله العلماء وطلاب العلم وقد بقي فيها شيء يحتاج إلى المراجعة وهو من المسكوت عنه ، وهذا كثير جدًّا وأعرض عليك واحدة يبعد أن يكون فيها شيء مسكوت عنه مع أن أهم ما فيها مسكوت عنه ، وهذه المسألة هي مسألة النظم التي دار كتاب دلائل الإعجاز عليها ودارت كتب البلاغة بعده عليها ، وقد لخّص عبد القاهر هذا النظم المعجز في الكتاب العزيز ، وهو في فواتح الكتاب ومن أهم فواتح الكتاب حديثه عن الشيء الذي تَجَدَّدَ بالقرآن . وأدركه القومُ وعجزوا عنه ، وخلاصته «مزايا ظهرت لهم في نظمه» ويقف الشيخ ليبين مراده بهذه الكلمة . ويقول «من أين كثرت هذه المزايا الكثرة العظيمة واتسعت الاتساع المجاوز لوُسْع الخلق . وكيف يكون أن تظهر في ألفاظ محصورة وكلم معدودة معلومة بأن يُؤتي ببعْضِهَا في إثر بعض لطائف لا يحصرُها العَدَدُ ولا يَنْتهي بها الأمَدُ» قال هذا في صفحة أربعين ، والسياق هو أن تظهر في ألفاظ محصورة لطائف لا يحصرها العدد ، وهذا هو الذي أريده ، وبعدما قطع مباحث مُهمّة في الكتاب كان منها التقديم والحذف

والإخبار بالفعل والإخبار بالاسم والفصل والوصل رَجَعَ إلى هذه الفكرة وأكدها وقال « لا يَثْبُت إعجاز حتى تَثْبُتَ مزايا تفوقُ علوم البشر وتقصر قوى نظرهم عنها ، ومعلومات ليس في مُنَنِ أفكارهم وخواطرهم أن تُفْضِيَ بهم إليها ، وأن تُطْلِعهم عليها »[1] وهذا قاطع في أن ضَمَّ الكلمات المعدودة بعضها إلى بعض على وجه خاص من الضم يفيد ويُنتج معلومات ليس في مُنن أفكار الناس ، أي في قواهم وليس في خواطرهم أن تُفْضِيَ بهم إليها ، وأن تُطْلِعهم عليها ، وإذا كان ضَمُّ الكلمات بعضها إلى بعض على وجه مخصوص من الضَّمِّ لا يُرادُ به إلا الإبانة عن المعاني والمقاصد . فهذا يَعْنِي أنك أولا تواجه معاني ومقاصد لا تدخل في معلومات الناس ولا تقوى خواطرهم عليها . ثم إنك أمام أحوال من نسق الكلمات المعدودة وَرَصْفِهَا على وجه أبانت به عن المعلومات التي لا تدخل في قوى الناس ، وكأنك تواجه أمرين معجزين لا أمرًا واحدًا . الأول هو المعاني والمقاصد والثاني هو النظم المعجز المُعَبِّر عن المعاني والمقاصد التي لا تدخل في قوى الناس ، وأن الحق جل وتقدس لما قال لهم فأتوا بعشر سور مثله مفتريات إنما أعْفَاهم من المعاني والمقاصد . وأن يأتوا بالنظم المعجز في أي باب يشاؤون . وهذا يعني أن النظم يخطو وراء المعاني خطوة خطوة . فإذا كانت المعاني عالية ومُمْكنة كان النظم عاليًا وممكنًا . وإذا كانت المعاني لا تدخل في الطوق كان النظم المعبِّرُ عنها لا يدخل في الطوق ، وهذا ينتهي إلى عجز الإنسان عجزًا مُطْبِقًا عن نظم لا يدخل في الطوق ما دام هو عاجز عجزًا قاطعًا عن المعاني والمقاصد التي لا تدخل في الطوق ، لا شك أن العناية

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٩ .

بالنظم المُعْجز الذي هو توخي معاني النحويين معاني الكلم على وفق الأغراض والمقاصد ليس المقصود النهائي منه هو بحث التقديم والحذف والفروق والوجوه . وإنما البحث عن الأغراض والمقاصد التي وراء هذه الفروق والوجوه .. وهي المعلومات التي لا تدخل في مُنن أفكار الناس وخواطرهم . وأن هذه المعلومات التي لا تدخل في مُنن أفكار الناس هي الأمر المعجز .. وأنها هي المزايا التي تتسع اتساعًا لا يدخل في الوسع ، وحين نفرغ وسعنا في بحث البناء اللغوي . من ذكر وحذف وفصل ووصل إنما نفرغ جهودنا عند عتبة الإعجاز ، والإعجاز هو الخطوة التي تلي هذه العتبة وهو المعلومات التي أبان عنها البناء اللغوي . وهي التي لا تدخل في منن البشر وهي التي تتسع اتساعًا لا يدخل في الوسع .

تأمل ما يتطلبه فقه هذا من الوقوف الواجب بين روابط كلمات الجملة القرآنية . وما تدل عليه هذه الروابط . وكيف نُحَصِّل أوْ نَقْترب أو نَفْتَح باب المعلومات الناتجة من هذه الروابط والتي لا تدخل في مُنن البشر .؟ ولا يشك أحد أن الجملة القرآنية معجزة . ومن يقول إنها ليست معجزة ينكر إعجاز القرآن . لأن الجمل هي المكونة للآيات والآيات هي المكونة للسور والسور هي المكونة للقرآن . فالجمل هي المفردات التي يتكون منها القرآن . وإنما كان التحدي بالسورة لأن التحدي بالجملة مما يمكن أن يرتاب فيه المبطلون وأن يشوِّشُوا حَوْل إعجازها . وقد يَنْخَدعُ بهم أهل الضعف فجاء التحدي بالسورة لأنه لا يقع فيه شيء من ذلك ، قلت هذا لأذكر بأن الروابط التي بين الكلمات في الجملة القرآنية داخلة في قول الشيخ (وكيف يكون أن تظهر في ألفاظ محصورة وكلم معدودة معلومة بأن يؤتي

ببعضها في أثر بعض لطائف لا يحصرها العدد ولا ينتهي بها الأمد) وأكرر بأن هذا حق لا يدخله الريب . وشرحه وتفصيله والنفاذ إلى أبعاده وآماده كله مسكوت عنه . والمطلوب مراجعة القرآن جملة جملة والوقوف عند كل جملة والتَّسمُّع من خلال روابط الكلمات إلى الخفايا والخبايا التي لا يحصرها العَدَدُ . ولا يحيط بها الأمَدُ ، . ثم راجع طبقة الآذان وثقافة الآذان التي تَنْفُذُ من خلال الروابط التي هي الإعراب إلى المعاني التي لا يحصرها العَدَد ولا يحيط بها الأمَدُ ، أما أنا فلو رزقت النفاذ إلى هذا في صفحة واحدة من المصحف لكان ذلك كافيًا ، ووددت لو أن لي به كل ما كتبت .

ثم إن الإعجاز هو فضل كلام الله على كل كلام . وهذا يعني أنه لا محالة من باب فضل الكلام على الكلام ، وإذا كان إنما بان وبهر وقهر لما بين كلماته في نسقها وتأليفها من معان لا تدخل في طوق البشر فإن هذا يعني أن شعر زيد لا يزيد على شعر عمرو إلا من هذه الناحية . وأن ثراء المعاني والخواطر والأفكار والمعلومات المنتوجة من ربط الكلمة بالكلمة هو مقياس الفضل . وهذا يعني أيضًا أننا في حاجة إلى أن ندرس الشعر من هذه الزاوية . وأن شعر امرئ القيس إنما فضل شعر غيره لأن هذه المنطقة التي يسكن فيها الشعر ، وتَسْكُن فيها الأغراض والمقاصد وكل ما جاش في صدور المتكلمين . وهي منطقة علاقة الكلمات بعضها ببعض هي التي فيها الشعر . وفضل شعر على شعر وفضل بيان على بيان . وهي التي يسكن فيها فضل امرئ القيس والنابغة وزهير ، وهذا باب آخر متسع جدًّا ويقتضي فهم الشعر على وجهه . وفهم الإعجاز على وجه أن ندرس الشعر كله من هذه الجملة

أعني جهة تحليل علاقات معاني الكلمات بعضها ببعض وما تحمله من أغراض ومقاصد وكل الذي قالوه في الذي ظهر به امرؤ القيس على الشعراء من أنه قيد الأوابد وشبه الخيل بالعقبان والنساء بالبيض كل هذا لا يملأ صفحتين من ديوان امرئ القيس . ويبقى بقية الديوان . والحقيقة أن فضل امرئ مع هذا الذي قالوه هو ما أنتجته كلماته في تأليفه ورَصْفِهِ وتنضيده وسَبْكه من معان فاقت ما تنتجه كلمات كل شعراء الجاهلية . وهكذا تأتي مراتبهم بعضها في إثر بعض . وليس هناك من سبيل إلا تحليل تنسيق الكلمات . وربط بعضها ببعض وتعلق بعضها ببعض . ومقدار المعلومات والخواطر التي في هذا النسق . وهذا التركيب ، وكل هذا مسكوت عنه ، وإنما نتناقل فَضْلُ امرئ القيس أو فضل النابغة ثم نحلل الشعر بالطريقة المألوفة وكأن هذا الأصل الذي بني عليه الإعجاز وبُنَيَتْ عليه البلاغة كأنه ليس موجودًا .

ذكرت أن جذر الإعجاز الذي لخَّصه عبد القاهر أمام هذا الباب في سطر واحد يفتح بابًا من الدراسات القرآنية يستشرف كله نحو كشف ما لا يدخل في الوُسْع ويَفْتَح بابًا من الدراسة للشعر الجاهلي متسعًا اتساعًا شديداً يستشرف كله إلى بيان نهاية الوسع ، وهذا كله مسكوت عنه .

وكل قارئ يتدبر ويراجع ويغلغل الفكر في كلام العلماء يجد فيه ركازًا من العلم هو من المسكوت عنه ، وكما أن الركاز في باطن الأرض لا يُسْتَخرج ولا يُكْتَشفُ إلا بالبحث والتنقيب كذلك ركاز العلم في كلام العلماء ، ثم إن هذا الركاز هو الذي يمد العلوم بالاتساع والنمو والازدهار والتجديد .

وهذه الحقيقة العالية ليست كلامًا ابتكرته وابتدعته وإنما هي ظاهرة ظهورًا شديدًا في تاريخ علومنا وأن تقدمها وتطورها واتساعها لم يكن إلا بالذي استخرجه اللاحق من كلام السابق . وكلامهم صريح في هذا بل إنهم خاطبونا بهذا خطابًا صريحًا وأشاروا إلى المخبوء في الكلام وأشاروا إلى العلم المسكوت عنه في العلم غير المسكوت عنه ، ومن ذلك قول الشيخ عبد القاهر في وصف كلام العلماء وأنه « إيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر . وأدق النظر . ومن يَرْجِعُ من طبعه إلى أَلْمَعِيَّة يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفيّ »[1] . وهذا ظاهر في أن غرض العالم خفي في علمه لا يصل إليه كل أحد وإنما يصل إليه من أعد نفسه بأمرين الأول تَغَلْغُل الفكر ودقة النظر . والثاني الأَلْمَعيّةُ التي يقوى بها على معرفة الغامض ويصل بها إلى الخفي ، وإلا بقي هذا الغامض وهذا الخفي مسكوتًا عنه .

ويقول « هذا موضع لا يتبين سِرُّه إلا من كان مُلْهَب الطَّبْع حَادَّ القريحة »[2] راجع مُلْهَب الطبع حاد القريحة وإلا بقي السر مسكوتًا عنه .

ويقول في الاستعارة التي كتب فيها صفحات كثيرة في الأسرار ويقول ذلك عنها في آخر كتاب دلائل الإعجاز « وفي الاستعارة علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق وسنقول فيها إن شاء الله في موضع آخر »[3] .

راجع : علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق ، ثم إنه لم يبين شيئًا من ذلك وهذا صريح في أنه علم مسكوت عنه . وأن الشيخ يُنَبِّه إليه . ولطائف

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٥٥ .

(٢،٣) المرجع السابق ص ٤٥١ .

المعاني ودقائق الفروق لا يصل إليها أحد إلا إذا تتبع الاستعارة في الشعر الجاهلي وتدبرها وأدْرَكَ الفروق التي بينها . واستخرج لطائف المعاني منها ، وهذا سبيل الشيخ في كل ما استخرج . ثم إننا إن فعلنا ذلك أدركنا غاية التثقيف ونهاية الصَّقْل في هذا الفن البياني الذي هو أحد أركان البلاغة ثم نعود إلى استعارات القرآن ونتبين فيها ما هو فوق نهاية التثقيف وما هو فوق الطاقة في الصقل والتحسين .

ويقول الشيخ « وهذه جملة مفهومة إلا أن تحتها خفايا تحتاج إلى الكشف عنها »[1] وهذا صريح في أن المفهوم تسكن تحته خبايا وخفايا .

وهذا وغيره كثير وله دلالة ظاهرة ، وهي أن علم العلماء الذي نقرأه مَسْكونٌ فيه علم مَسْكُوتٌ عنه لم تقرأه ، وربما كان أزكى وأصفى وأنقى من العلم الذي نقرأه . ولا شك أن من مهمات الأقلام الحية التي تحركها عقول حية هي البحث عن هذا الساكن المسكوت عنه .

وإذا كان الإعجاز البلاغي هو أن كلمات معدودة أُلِّف بعضها مع بعض على وجه من التأليف فأفادت معلومات لا تدخل في طوق البشر فإننا مع شدة العناية بعلم دلائل الإعجاز الذي صار علم البلاغة وصُنِّفت فيه المصنفات التي لا حصر لها وكتبت فيه البحوث التي لا حصر لها لم نقف على بَحْثٍ واحد في هذا الذي لا حصر له وقف عند تأليف آية في كتاب الله واستشرف إلى أن يضطلع هو أولا على المعلومات التي لا حصر لها والتي

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٩ .

ليس لها موطن إلا موطن واحد وهو حيث تمسك الكلمة بالكلمة . ثم يطلعنا معه على الذي اطلع عليه ، قال المفسرون ما قالوا واستخرج الفقهاء ما استخرجوا واستخرج علماء العقائد ما استخرجوا وبقي فتح باب المعلومات التي لا تدخل في طوق البشر مسكوتًا عنه وقد كتبتُ في أسرار البيان القرآني ما كتبتُ ولم تخامرني فكرة فتح باب المعلومات التي لا تدخل في طوق البشر . وإن كنت قرأتها مع بداية طلب العلم . وليس هذا بغريب لأن هذا شأنُ العلم . تكون مشغولاً بشيءٍ وحولك أشياء ربما كان بعضها أهم من الشيء الذي أنت مشغول به . ولكنك لا تلتفت إليه حتى يأتي الوقت الذي يكون هو همَّك وشاغلك .

ولا يطمع طامع مهما كانت مقدرته ، ومهما كان صَبْرُه . ومهما كانت دُرْبته في أن يستخرج من أي آية من كتاب الله كل ما فيها . لأن الذي في كل آية وتحت كل كلمة من المعاني ما لا يُحْصِيه العَدَدُ وما لا يحيط به الأَمَدُ وأن العجز عن الإحاطة بما فيها عَدْل العجز عن الإتيان بمثلها . ومع ذلك نحاول أن نصل إلى ما يمكن أن نصل إليه ، من المعلومات التي في الجملة التي نُسِقَتْ كلماتُها المعدودة نسقًا خاصًّا . فأنتجت ما لا يدخل في الطوق .

وإذا كان عجزنا عن أن نأتي بسورة من مثله عجزًا ظاهرًا لا مراء فيه . فإن الله سبحانه قد يسّرَ لنا أن نرى في آياته من المعاني والمعلومات ، والخواطر ما لا مِراء في أنه لا يجوز أن يوازن بالذي نراه في أجود الشعر . وأكرم البيان . وأن الكلام البليغ بالغًا ما بلغ تستطيع أن تَرَى أُفُقًا ينتهي عنده معناه . وأن كلامنا يفضل بعضه بعضًا بمقدار سَعَةِ هذه الدلالات التي لها في

النهاية أمَدٌ يَحدُّها وحَصْرٌ يَعُدّها ، وهذا بخلاف ما نجده في كلام ربنا سبحانه . ويلاحظ أن هذا دين وأن المبالغة فيه خداع للنفس . وأن كلام الله سبحانه ليس في حاجة إلى أن تبالغ في بيان بلاغته ، ولا أن تبالغ في بيان فَضْلِه لأنه فوق كل بلاغة وفوق كل فضل . وفوق كل برهان ، هذا شيء .

ثم إن معاني آيات الذكر الحكيم باب مُشْرَعُ ومفتوح للأجيال كلها . وكل جيل له همومه . وله قضاياه وله أوْصابُه . وكل من يَدْرُسُ البيان وهو حيّ يحمل هموم زمانه . وهموم قومه . لا يستطيع ولا يمكن أن يستطيع أن يَطْرَحَ من قَلْبه . وعقله هموم زمانه . وهموم قومه . وهو يُحَلِّلُ أي بيان سواء كان أثرًا أدبيًّا أو كلامًا مُنزَّلاً ، ولهذا تَخْتَلِفُ الشروحُ ويختلف التحليل . بمقدار اختلاف الأزمنة . والأحداث والقضايا . والفرق بين شرح وتحليل الأدب . وشرح وتحليل كلام الله هو أن الباحث في كلام الله يبحث فيه عن الطريق الهادي إلى الصراط المستقيم . والذي يُخْرِجُ الباحث وقومه من الظلمات إلى النور ، ويجد في الكتاب الضوء الهادي إلى الصراط المستقيم . والدليل الساطع الذي يَدُل على طريق الخروج من الظلمات إلى النور .

والغريبُ أنك لا تشعر وأنت تدرس الكتاب وهموم زمانك وقومك بين جنبيك أنك تبحث في كتاب قديم عن وسائل تفريج همٍّ جديد . وإنما تراك وجهًا لوجه مع الحلول الناجعة والناصعة وأن هذا الكتاب كأنه نزل اليوم . وكأن الهمّ الذي أنت تحمله هو سبب النزول وهو المناسبة التي نزلت الآية لها . وأكرر أن كلام الله سبحانه أكرم وأكبر وأجل من أن تتزيّد في شأنه بحرف واحد . وإننا نبرأ إلى الله أن نلقاه وقد وقعنا في هذه الخطيئة . لأنه

كلامه سبحانه جلاله من جلالة وعلمه من عِلْمِه ورحمتُه من رحمته . واقتدارُه من اقتدارِه ، وهو يعلم أني أقول ما رأته عيني وما سمعته أذني . ثم إن امتداد وسعة معاني الكتاب العزيز لا أستطيع أن أُبْعِدها عن قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف:١٠٩) وقوله جل شأنه : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان:٢٧) وليس عند الله شيء ينفد سبحانه وتعالى وخزائنه ملأى .

قلت لا أستطيع إبعاد المعاني المُتدفِّقة من علاقة الكلمة بالكلمة المنسوقة على وجه خاص من وجوه النسق والتي أَنْتَجَتْ معلومات لا تدخل في مُنَنِ البشر عن آيتي الكهف ولقمان . وأقول مرة ثانية لا أستطيع أن أُبْعِد السَّطْرَ الذي نقلته وقرَّرته والملخِّص لمعنى الإعجاز عند الشيخ عبد القاهر عن قول العلامة الخطابي القرشي العدوي المُتَمَيز في عناصر الكلام الثلاثة اللفظ الحامل والمعنى القائم . والرباط الناظم . وأن البلاغة الخاصة بالقرآن هي بلوغ هذه العناصر الثلاثة ذروة الكمال البياني المطلق في هذه الثلاثة ومعناه أن علم الله سبحانه الذي لا يحاط به منه هذه المعلومات التي لا تدخل في مُنن البشر . وأن علمه سبحانه باللفظ الحامل هو أنك لا تجد لفظة في الذي بين الدفتين تقوم غيرها مقامها . وأن سعة علمه بالرباط الناظم هو الذي كان منه وبه هذه العلاقات بين معاني الكلمات . وأنها في الذي بين الدفتين شلالات تتدفق منها المعاني فتغمر حياة الأجيال جيلاً من بعد جيل في كل أرض دخل عليها الليلُ ثم يعود هذا المصحف إلى ربه يوم أن يبطل التكليف وكأنه لم يُؤْخذ منه شيء . وهذا حال كل ما أودع الله فيه أسراره .

ويقول علماء علوم الكون إن الذي وصل إليه العلم هو نتيجة لما اكتشفه العلماء من أسرار هذا الكون ولم يزيدوا في كشوفهم عن خمسة في المائة من أسرار هذا الكون وأن العلماء يكتشفون من أسرار هذا الكون ما يكتشفون ثم تأتي القيامة وهذا الكون مكنون على أسراره . وكأنه لم يؤخذ منه شيء . والمصحف كون ناطق . والكون مصحف صامت . وقد سُمِّيت آيات الله في الكون آيات كما سُمّيت آيات الله في المصحف آيات وآيات الله أسراره الهادية إليه . وقد تبيّن بها الرشد من الغيّ . وإنني وإن حُرمتُ كشف المكنون ، فإنني لم أُحرم الوقوف على بابه لأدلّ غيري عليه ، ولهذا المعنى كتبت في عنوان كتابي في كلام سيد الخلق سبحانه دراسة في سَمْت الكلام الأول ، والمراد كلام جيل المبعث . ودراسة سَمْت كلام هذا الجيل من أفضل أبواب العلم ، وهو مسكوت عنه ، وكلمة السمت التي أردت أن ألفت إليها هي من كلام القدماء . وكان الباقلاني يلحق بها كلمة (الرفت) فيقول سَمْتُ الكلام وَرْفُته والرفت من معناه الدقائق الصغيرة التي تكون من تفتيت الشيء وتحليله ، وهي أخت السمت لأن سمت الكلام ورفته من أخفى دقائقه . وأخفى عناصر تكوينه ، وكما أن دراسة سَمْتَ الكلام الأول من أفضل وأوسع أبواب العلم المسكوت عنه . كذلك دراسة منازع الشعراء . وكلمة منازع الشعراء من كلام علمائنا ولكل شاعر مَنْزَعْ ولكل ذي بيان منهج ومهيع . ولما كان ذلك مسكوتًا عنه وخصوصًا في الشعر الجاهلي الذي هو رأس بيان العربية نَبَّهْتُ في عنوان كتابي في الشعر الجاهلي إليها وقلت دراسة في منازع الشعراء وعلم الله أفنى في هذا كله وفي المسكوت عنه الذي بين يديك ما أرَدْتُ إلا أن ألفت أذكياء الجيل الجديد

إلى الخوض في حديث المسكوت عنه . وقد قلت وأكرر أنني لم أكتب للمتفيهقين وإنما أكتب للجيل الجديد عسى أن يُهَيَّأَ له ما تتقدم به البلادُ والعباد لأننا وصلنا في طريق التخلف والسير إلى الوراء إلى المُنْتَهَى الذي ليس بعده إلا العدم . والله وحده هو الذي يعلم الذين فعلوا بنا هذا . ولا ندعوا عليهم وإنما ندعوا الله أن يخلصنا منهم . ومن عقابيلهم .

والآن أبدأ في محاولة بيان ما أستطيع بيانه من جملة واحدة من كتاب الله ، وأكرر أنني لم أرزق التغلغل في الخبايا والخفايا التي وراء الأبواب المغلقة وإنما رزقت محبَّة الوقوف على عتباتها ، وإنما للعبد ما رزقا .

والآية التي سأطرق بابها من المحكمات اللائي هن أم الكتاب وهي قوله تعالى أول سورة إبراهيم ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم:١) .

الكلام في كلام الله حَذِرٌ جدًّا ، وأن الله سبحانه وتعالى رفع عنا الحرج إذا تركنا في الآية ، معنى لم نفطن إليه لأنه سبحانه يعلم أن معاني آياته لا تتناهى . ولكنه سبحانه لم يرفع عنا الحرج إذا أضفنا إلى كلامه معنى لا يدخل في كلامه . لأن هذا من الكذب على الله ومن كذب على الله وعلى رسوله ﷺ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ونعوذ بالله من ذلك ، وما أغنانا عن أن يكون لنا مقعد في النار نتبوّأه ، والجالس على كرسيّ الحكم وهو ظالم فهو جالس على مقعد من النار ، فإذا جلس على كرسيّ الحكم وهو عادل جلس على منبر من نورٍ يوم القيامة عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، فلينظر كل جالس على كرسيّ

الحكم أي المقعدين يريد . وليس هناك أحد أكبر من أن يذكّر بالله . ومن خوَّفك لتبلغ الأمن خير من الذي أمَّنك لتبلغ الخوف .

حروف المعجم التي تبتدئ بها السور فيها كلام كثير وأقرب ما قيل إنها إشارة إلى أن ما يتلى عليكم وأنتم عاجزون عن أن تأتوا بسورة من مثله ، هو من كلامكم الدائر في أفواهكم . وليس فيه حَرْفٌ واحد خارج عن حروف كلامكم ، وهذا تجديد للتَّحدِّي . والتقريع ، وإثارة الحميّة ليأتوا بسورة من مثله ، وقوله سبحانه (كتاب) بالتنكير إشارة إلى أنه كتاب أي كتاب ، وأنه بديع غريب معجز ليس مثله كتاب وخصوصًا في المعنى الذي تضمنته هذه الجملة والتي بُنِيَتْ عليه ، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإن ارتبتم في ذلك فهاتوا كتابًا يخرج الناس كل الناس في الزمان كل الزمان ، من الظلمات إلى النور ، ولن تجدوا ذلك ، وهذا إعجاز آخر غير الإعجاز بالتأليف والنظم ، وصلاحية هذا الكتاب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور في الأزمنة كلها والأمكنة كلها والأجناس كلها والمستويات الحضارية كلها هذا من أظهر وجوه إعجازه . والذين ذكروا الإعجاز في البلاغة يعلمون أن كل ما في الكتاب معجز ، وإنما ذُكِرَتْ البلاغةُ لأن التحدي كان بها ، وكلمة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ (إبراهيم:١) صفة للكتاب وإسناد إنزاله إلى ضمير العظمة فيه من الجلال ، والكمال ، والعلو ، والسلطان ، والتفرد ، والوحدانية ما في ضمير العظمة الذي أنزله سبحانه . فالكتاب فيه كمال الذي أنزله ، وفيه رحمة الذي أنزله لأنه هو الرحمن الرحيم وفيه علم الذي أنزله وفيه علو وغلبة وسلطان الذي أنزله .

ونلاحظ أن الحديث عن القرآن في القرآن يعقبه غالبًا حديثٌ عن الجلال والتفرد وأن له سبحانه ما في السموات وما في الأرض وأنه سبحانه خالق السموات والأرض وأنه يحيي ويميت . وذكر الله سبحانه وذكر صفاته العلا مع ذكر الكتاب يعني أن هذا الكتاب من الله بمكان . وأن الكمالات المطلقة لرب العالمين هي كمالات مطلقة ، في كلام رب العالمين . وراجع هذا في المصحف . وراجع اللوح المحفوظ الذي أنزل منه الكتاب ، واقرأ آية الواقعة والقسم بمواقع النجوم ،والمقسم عليه أنه لقرآن كريم وأنه في كتاب مكنون ، إلى آخره ، وضم إلى ذلك آيات التنزيل في الكتاب العزيز وهي كثيرة جدًّا ، وليس هذا هو معنى الآية الذي نريده وإنما يُعِينك على أن تَتَدَبَّر فيض المعنى الذي يُغْدِقُه عليك إسناد أنزل إلى ضمير العظمة . ثم راجع ضمير المخاطب في قوله تعالى ﴿ **أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** ﴾ (إبراهيم:١) والمخاطب سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، وراجع التكريم الذي في هذا الجار والمجرور . وأن الذي في اللوح المكنون أنزله رب العزة بجلاله وسلطانه إليك يا سيد الخلق ، قلت راجع وأكرر لأنه لا يصل إلى قلبك وعقلك أزكى ولا أطيب من معنى تراجعه أنت وقُصارى الذي عندي هو الذي قلته . ويبقى شيء هو الآكد ، وعليك أنت أن تجده ثم راجع أن كل الذي أُنْزِل إليه أُنْزِل إلينا . وأنزل إلى الناس كافة . وكأنه عليه السلام هو أمته . وأن من أحبها فقد أحبَّه . ومن سعى في خدمتها فهو ساع في خدمته صلوات الله وسلامه عليه ، ومن حاربها فقد حاربه . ومن آذاها فقد آذاه ﷺ . وراجع ما وراء ذلك كله وعُدْ به إلى الجار والمجرور إليك وأن معناه إليكم وأنه عليه السلام قام مقامها في مقام خطاب الحق له .

وقوله سبحانه ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:١) أسند إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلى نبي الأمة ﷺ ، والمعنى لتخرج الناس بهذا الكتاب من الظلمات إلى النور لأن ما في الكتاب من أمر ونهي ووعد ووعيد هو الذي يخرج الناس أو هو الذي يخرج به الناس وقد أشار إسناد الإخراج إلى المخاطب صلوات الله وسلامه عليه وهو قائم مقام الأمة إلى أن فعل هذا الكتاب في الناس أو في الوجود الإنساني وأثره في هذه الأرض متوقف على سكونه في الناس . وإحداثه التغيير في هذه الناس ، فلو أتخذتموه مهجوراً فلن يفعل شيئًا . وأن تَلَوْتُمُوه بالحناجر وملأتم به الأرض فلن يفعل شيئًا ، وإنما يفعل إذا أسكنتموه في قلوبكم . ووجد كل منكم صوت القرآن في فؤاده وغيّرتم به أنفسكم ، هذا الإسناد يَعْني أن الله سبحانه أنزل الكتاب العامِرَ كُلَّه بعلوِّ الإنسان وسُمُّوه وإكرامه لتتلقاه الروح الإنسانية التي خلقها الله وهو أعلم بصلاحها وإصلاحها وأودع هذا الصلاح والإصلاح في الكتاب الذي أنزل .

وكلمة الناس ووقوعها مفعولاً به «لتخرج» شاملة لكل الناس من آمن به ومن كفر ؛ لأنه عليه السلام رسول إلى الناس كافة . وأن الكتاب الذي أنزله الله عليه كتاب يخرج الناس كل الناس من الظلمات إلى النور . أما الذي آمن به فإنه يخرج به من الظلمات إلى النور طاعةً وانقياداً لأمر الله ، يَحْدُوهُ في طريقه إلى النور قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾ (المائدة:٩٢) وأما الذي كفر به فإن ما فيه من الخير والرحمة والعدل والدعوة الدائمة إلى العمل الذي تصلح به الحياة وتعمر به الأرض يقود من كفر به إليه العقلُ والرشدُ وحبُّ الأوطان بصدقٍ وحبُّ أهل وطنه

بصدق ، ولذلك ترى الأمم المتقدمة غير المسلمة وهي تطبق مبادئ الحق والخير والعَدْل ، والرفق بالناس والعمل الذي تصلح به الأوطان ، وإتقان العمل وإحسانه ، وكلها من مبادئ هذا الكتاب العزيز ، وقد نفذ الشيخ محمد عبده إلى هذه الحقيقة لما قال وجدت في الغرب إسلامًا ، ولم أجد مسلمين ووجدت في الشرق مسلمين ولم أجد إسلامًا ، وذلك لأن الغرب بالعلم والحكمة والفطرة والإخلاص والصدق نفذوا إلى هذه المبادئ التي هي الفطرة فاعتنقوها وانقادوا إليها بالحكمة والرشد وصواب الرأي وحرية التفكير ، وتاهت من الشرق بالجهل والقهر والاستبداد ، وإهانة الإنسان ، والفزع والخوف الذي هو عدو التفكير وعدو الحرية وعدو الإنسان ، وهذا ليس أكثر من فتح باب معنى وقوع كلمة الناس مفعولا به لتخرج ، وقد ذكروا أن الإسلام لما دخل الهند غيّر كثيراً من الديانة البوذية التي اقتبست منه وطوّرت نفسها .

وكلمتا الظلمات والنور من أجمع الكلمات وأغزرها بالمعاني لأن كل شر في الأرض يَدْخُل في كلمة «الظلمات» وكل خير في الأرض يدخل في كلمة «النور» وإنما تقدمت كلمة الظلمات لأن الناس كانوا فيها ، لأنها انحراف عن الفطرة ، ولو بقي الإنسان على الفطرة التي فطره الله عليها لما احتاج إلى هدى يهديه لأنها هي الهدى ، وإنما رُزِقَ معها الاختيار فتاه قدمه عنها ، وانحرف عنها ، فأنزل الله له كتبه وبعث إليه رسله ، ليُعيده إلى هذا النهج الأول ، ولو بعث الله واحدًا من الأجيال الماضية وسألناه عن ظلمات زمانه لعدَّدَ ظلمات تتفق مع الذي نحن فيه وتختلف . لأن الظلمات وإن كانت في أصولها العامَّة واحدة فلكل زمان خصوصية في ظلماته يختلف بها

عن غيره ، ولو سألتني عن الظلمات في الزمن الذي عشته قبل خمسين سنة لذكرت لك شيئًا يختلف عن ظلمات هذا الزمن ، وهكذا لو سألت الناس في كل قُطْرٍ وفي كل قارَّةٍ وفي كل زمان لوجدت اتفاقًا واختلافًا . وآية الله في الكتاب الذي أنزله إلينا أنه قادر على أن يخرج الناس كل الناس في كل زمان وفي كل مكان من هذه الظلمات ، ولن يجد الناس هذا في كتاب متفلسف ولا في كتاب سياسي ولا في كتاب حكيم . وهذا من أَبْرَزِ وُجُوه الإعجاز . والذين يقولون الإعجاز في بلاغته لا ينفون وجوه الإعجاز الأخرى وإنما يركزون على ما وقع فيه التحدي .

ولا شك في أن الكفر ظلمات ، وأن قتل النفس بغير نفس ظلمات ، وأن الجهل ظلمات ، وأن التخلف ظلمات ، وأن حرمان الأطفال من رعاية آبائهم بغير ذنب ارتكبوه ظلمات،وأن حرمان المرأة من زوجها الراعي لها ظلمات، وأن حرمان الأم العجوز والأب العجوز من ولدهما الراعي لهما ظلمات ، وأن القهر ظلمات . وأن إهانة الإنسان ظلمات . وأن كسر أَنَفَةِ أبناء الوطن التي يحمون بها الوطن خيانة وظلمات ، وأن الاستبداد ظلمات ، وأن تسليط بعض طوائف الشعب على بعض طوائف الشعب ظلمات ، وأن تخريب المدارس ظلمات ، وتخريب المصانع ظلمات ، وتدمير البحث العلمي ظلمات ، واختيار الأصحاب وأهل الثقة وتجاهل الكفاءات في رعاية مصالح المواطنين ظلمات ، وأن الفقر ظلمات ، وخراب المستشفيات ظلمات ، وأن إدخال الخوف والفزع والرعب على الناس بجيشهم الذي هو من أبنائهم ظلمات ، وهكذا ليس عليك إلا أن تجلس في بلد متخلف وتنظر حولك وتسجل الواقع ولن تجد إلا الظلمات ، لأن التخلف بكل صوره ليس له إلا

أب واحد وهو الظلمات التي بعضها فوق بعض والتي ذكرت أطرافًا منها ، وقد نهى القرآن عن هذا كله وتوّعد عليه بعذاب الجحيم في الآخرة مع أنه في الدنيا جحيم . والشعب الحر الذي ليس مقهورا يكره التخلف كما يكره أن يقذف في النار . والقهر والقمع يقتل كل خير في النفس الإنسانية وقل مثل ذلك في النور فالإيمان نور ، والعلم نور ، وحريّة الإنسان نور ، وكرامته في وطنه نور ، وأمنه في وطنه نور ، وازدهار العلم في المدارس نور ، وازدهار العلم في الجامعات نور ، ورعاية العلماء نور ، وتربية الكفاءات التي هي ضرورة لتقدم المجتمعات نور ، والبحث العلمي في مراكز البحوث نور وتأسيس الصناعات المتطورة بجوار هذه المراكز المتطورة نور ، والبحث عن الأكفأ في رعاية مصالح الناس ولو كان مخالفًا في الرأي نور ، والعدل نور ، والقضاء العادل من نعم الله في الأوطان ، والقضاء الظالم من أسوأ الظلمات ، وهكذا عدِّد كل ما تتقدَّم به البلاد والعباد ويحيي به المواطن حياة كريمة على أرضه التي يدافع عنها بإباءه وشموخه ، وسوف تجد كل ذلك داخلاً في كلمة نور ، وتجد الكتاب العزيز قد حَرَص عليها ، وحضَّ عليها ووعد بالثواب عليها ، وأن الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وراجع كلمة الصالحات وستجد منها العدل ، والبر ، والرحمة ، وإزالة الشحناء التي بين طوائف الناس ، وستجد منها الإخلاص الشديد في حب الوطن ، وأن حب الوطن لا معنى له إلا حُبُّ أبناء الوطن ، والذي يَقْتُل ويُخوِّنُ ويَقْهرَ وَيَقْمَعُ ويَسْتَبدُّ ثم يقسم بكل الأقسام أنه يحب الوطن هو كاذب لأن حُبِّي لبلادي هو حُبّي لساكني بلادي .

**وماحب الديار سكن قلبي ولكن حب من سكن الديار**

فمن قتل الذي سكن الديار ثم تمرَّغ على الأعتاب يُحبُّها فهو كاذب ومن يصدقه كاذب . والصدق والكلمة الصادقة هي سبيل الصلاح والإصلاح : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (الأحزاب:٧٠،٧١)، راجع ترتيب الوعد بصلاح الأعمال الذي هو صلاح الحياة كلها على الأمر الذي هو قول كلمة الحق وكلمة الصواب وليست كلمة النفاق ولا كلمة المجاملة . وفكر في هذا ستجد هذا الترتيب يفيض بمعانٍ لا تدخل في مُنن البشر ، ثم راجع المراد بالسداد الذي هو الصواب وما يسبقه من دراسة وتحليل وفهم يؤدي إلى القول السديد ثم كلمة اتقوا الله ، وأنها المقدمة لهذا كله وأنها تعني التجرد الكامل من الأهواء ، والاجتهاد الكامل في البحث عن الذي يرضاه سبحانه في رعاية المصلحة العامة لأن الآية شاملة لمصلحة شأن الأمة والخطاب فيها للجماعة .

وهكذا تجد كلمات تدخل في بناء الكلام وتقف لتحيط ببعض عطائها فتجد أصلاً من أصول عمارة الأرض . وصلاح حال الجماعة وصلاح حال البلاد والعباد ، وراجع وحدك آية الأحزاب ، **وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ** لأن الذي قلته لا يساوي غرفة يد من ماء بحر عذب ، وتغلغل في الأكاذيب التي حولك وكيف أفضت وتفضي إلى فساد أحوال البلاد والعباد ، وراجع جملة قرآنية تكررت كثيراً في الكتاب العزيز وهي قوله تعالى ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (البقرة:٢٥) ، وانظر إلى المدى الذي تصل بك إليه كلمة «عملوا الصالحات». وإذا فسرنا عمل الصالحات بالعبادات التي هي الصلاة والصوم نكون قد أغلقنا بابًا من العطاء هو وحده يكفي لعمارة هذا الوجود . لأن عمل الصالحات يدخل فيه كل ما تصلح به

حياة الفرد . وحياة الشعب . وحياة الأمة . فالبحث العلمي المتفوق على بحوث كل من يحاول أن يرمي البلاد بحجر هو من أكرم عمل الصالحات . والطب المتفوق من عمل الصالحات . والتفوق في الصنائع من عمل الصالحات . والإنتاج الزراعي المؤسس على العلم النافع هو من عمل الصالحات . والسياسي الذي يجمع أهل البلاد كلهم حول مصالح البلاد هو من عمل الصالحات . والسياسي الذي يرفع علم الحق فيتبعه أهل الحق هو من عمل الصالحات . وهكذا عدّد كل شيء ابتداء من إماطة الأذى عن الطريق الذي يقوم به عامل النظافة إلى أعلى مستويات البحث العلمي وأعلى مستويات التصنيع وأعلى وأسد وأصوب القرارات السياسية . كل هذا داخل في كلمة «وعملوا الصالحات» واقلب المعنى على الوجه الآخر لتجد وعملوا السيئات وادخل على معجم التخلف من الظلم والقتل والسلب والنهب والمحسوبية وولاية الأغبياء وخراب الزراعة ، والصناعة إلى آخره ، والأول هو طريق الجنة في الآخرة بعد ما حقق الجنة في الدنيا والثاني طريق الجحيم في الآخرة بعد ما صير البلاد جحيمًا ، عمل الصالحات يجعل الحياة الدنيا جنة تنتقل منها إلى جنة الآخرة ، وعمل السيئات يجعل الحياة الدنيا جحيمًا تنتقل منها إلى جحيم الآخرة .

بقيت جملة قرآنية بنيت على ثلاثة أوامر أمر فيها خالقنا جل وتقدّس خير خلقه صلوات الله وسلامه عليه بثلاث كلمات فيهن صلاح البلاد والعباد وفيهن تحصيل خير لا يقادر قدر وكف شرٍّ لا يقادر بلاؤه ، هذه الكلمات الثلاث جاءت في سياق لينه عليه السلام ورحمته للناس وأن القلوب تجتمع

باللين والرفق والحب والرحمة وتنفر من الفظاظة والغلظة والاستعلاء والغطرسة وأن قيمة الرجل في قومه وهيبته في قومه لا تُفْرض بالقمع والاستعلاء والقهر والخوف والغطرسة وإنما بالأُلفة والمحبة والتراحم والتواصل .

هذه الكلمات الثلاث هي قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) والعفو لا يكون إلا عن ذنب وأن ذنبهم إنما هو في جنب الله ورسوله ، وأن الذي خلقهم ورزقهم وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة أذنبوا في جنبه وأنه سبحانه هو الذي يأمر بالعفو عنهم ليعلمنا أن العفو من شيم الكرام . وأن الحقد والانتقام وطيّ النفوس على البغضاء من شيم اللئام ، وأن العفو والمحبة والصفاء هو الذي به تتحرك حياة الجماعة إلى الأمام وأن الأحقاد والضغائن وتصفية الحسابات تُدّمر حياة الناس ، وأن طاقة العمل والإنتاج في الفرد والجماعة ، إنما تنشط مع الحب والصفاء والتآلف والتساند وعليك أنت أن تُتمَّ التفكير في حال حياتين حياة علاها التسامح والحب وحياة يملؤها الخوف والبطش والأحقاد ، وأن تتبين الخطوات التي يقطعها كل فريق نحو الحياة الأفضل .

ثم إن الحق جل وتقدّس لم يكتف بالأمر بالعفو وإنما أردفه بقوله سبحانه : ﴿ **وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) وهذا معناه خطوة ثانية وهي غسل النفس من الإحساس بذنبهم . وزيادة على ذلك صار في قلبه محبة للذي أذنب وعفا عنه لأنه لا يستغفر إلا لمن يحب . وتذكر أننا مأمورون بذلك . وصار فريق المذنبين الذين أُمرنا بالعفو عنهم من الفريق العزيز الذي

نستغفر الله له مع استغفارنا لأنفسنا وأبوينا ولا ننظر فقط إلى سطح هذا الواقع الناشئ عن العفو والاستغفار وإنما راجع حركة هذا الشعب وانطلاق هذا الشعب وحيوية هذا الشعب الذي تغلغلت هذه الشيم الكريمة في طياته كيف ينطلق ؟ وكيف يعمل ؟ وكيف يحب بعضه بعضًا ؟ وكيف ينتج ؟ وكيف يكون المعلم فيه حريصًا على أبنائه ؟ وكيف يكون الباحث فيه حريصا على قومه ؟ وكيف يكون الصانع فيه حريصًا على صناعته إلى آخر ما في الحياة من مسؤوليات وكل مسؤول كأنه مسؤول عن بيته وعن أهله وعشيرته ، ولا تظن أن هذه أحلام واعلم أنها حقائق قائمة في الشعوب المتقدمة أدركتها بالفطرة وحققتها بالعقل لأن كل أمر الله ونهيه إنما هو من الفطرة بسبيل متين .

وقوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) زيادة عن العفو والاستغفار وهو إدماجهم في الشأن العام وجلوسهم مع أهل الرأي والحكمة والمشورة ، والانتفاع بكفاءاتهم وعلمهم وعقلهم وحكمتهم ، ولو كان رأي الفرد وحده مغنيا لكان رأي خير البرية وحده مغنيا ولم يؤمر عليه السلام بأن يشاورهم في الأمر ، ثم إن الأمر بالمشورة الذي في قوله تعالى : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الشورى:٣٨) في سورة الشورى أجمع العلماء أنه أمر في كل النبوات وأن أول نبي أمر بالشورى كما أمر آخر نبي وأن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه أنزل هذا الأمر مع كل نبي لأن الذي يتولى أمر الناس قد توسوس له نفسه فيستبد بأمر الناس ، والاستبداد هو الرحم الولود لكل سوء في حياة الناس .

ونحن نكتفي بأن الشورى تصل بنا إلى الرأي الصواب والقرار الأفضل وهذا حق وحق أيضًا أنها تدفع الشعب دفعًا إلى الاشتغال بالشأن العام الذي هو شأن الشعب وليس شأن شخص وأن على هذا الشعب أن تتوفر لديه المعرفة والعلم بما تصلح به أحوال البلاد والعباد ، وأن عليه أن يدّرب نفسه على حب المصلحة العامة ، وأن لا يظل حياته منكفئًا على ذات نفسه ، لأن هذا هو شأن الشعوب المتخلفة وليس هناك شعب متقدم إلا وله علم بالذي عليه بلاده ، تستطيع أن تختصر أمر الشورى بأنه تربية سياسية للشعب ومدرسة لتخريج كفاءات سياسية متوفرة في حياة الناس يتولى أفضلها ما يتولى من مصالح البلاد والعباد ، وبذلك يتخلص الناس من أفكار التخلف الشائعة فينا وهي أننا دائمًا ننظر حولنا ونقول لا يصلح لهذه الوظيفة إلا الذي هو فيها ، نريد أن ننظر حولنا ونرى كفاءات متعددة وأن نختار .

هذا وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كما صلى وسلم وبارك على أبويه إبراهيم وإسماعيل في العالمين إنه حميد مجيد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المعادي الجديدة : رجب ١٤٣٨هـ

الموافق : مارس ٢٠١٧م

**محمد محمد أبوموسى**

**عضو هيئة كبار العلماء**